# النص بين التشظي وفضاء المعنى

**الدكتور: بن الدين بخولة**
**قسم اللغة العربية**
**كلية الآداب والفنون**
**جامعة الشلف (الجزائر)**

## ملخـــص:

النص عمل فكري وثقافي يصدر عن مرجعية معينة وإسقاطات نفسية خاصة بصاحب النص، وفي المقابل يحمل قارئ النص معه ثقافته وفكره ومرجعياته بالإضافة إلى إسقاطاته النفسية التي يمارس بها عملية واعية هي القراءة التي تبدأ من اللحظة التي تم فيها اختيار نص ما دون غيره من الكثير المتنوع والمختلف. لذا نتساءل: هل لهذه الانتقائية دور في فهم معاني النص؟ وهل الهدف من أيّ قراءة هو الوصول إلى ما كان يهدف إليه صاحب النّص من الكتابة، أم هو ما يقدمه النّص؟ وهل بالضرورة أن يكون ما يقدمه النص هو ذاته ما يريده صاحب النص؟ وهل النص الأدبي رؤية أحادية يمثلها صاحبه، أم هو معادل موضوعي لطبيعة الحياة في حد ذاتها؟ وهل يعد إخفاق فهم معاني النص كما كان يرغب صاحبها في إيصالها للقارئ إجهاض لعملية التواصل في حد ذاتها أم هي لحظة ميلاد جديدة للنص في فكر المتلقي لمولود جديد من مبدع ثان.

## Abstract :

The text which is an intellectual and cultural action produces a specific reference and psychological projection of the owner of the text. In return, the reader of the text carries his own culture, ideas and terms of reference, in addition to his own projections, in which he exercises a conscious process, the reading that began from the moment when a text was chosen from lots of diverse and different texts. So is this selectivity playing a role in understanding the meanings of the text? Is the aim of any reading to reach what the author of the text intended to write, or what the text provided? Does it necessarily have the same as what the author wants? Is the literary text representing the vision of its author, or is it an objective equivalence to the very nature of life? Is the failure to understand the meanings of the text as the owner wishes to convey to the reader an abortion for the communication itself or is it a new birth for the text in the mind of the recipient of another creative person?

يسعى التيار التأويلي* إلى قراءة النص قراءة مغايرة قصد الوقوف على الدعاوي العلنية أو الخفية التي كانت من وراء هذه المشاريع القرائية للنص من أجل إفراغه من حمولته الدلالية وشحنه بدلالات وقيم هي من خارج النص، إذ لا يمكن اختزال مفهوم النصفي ذلك البناء الشكلي

الذي تتخذه اللغة،والذي يتراءى للوهلة الأولى من قراءته،إذ هو كلام تؤسسه تعالقات دلالية بين أجزائه مكونا كلام تماسكا ويخضع في جانبه اللغوي إلى ترابط نحوي تتسق وفقه وحداته الجزئية (الجمل) استنادا إلى مجموعة قواعد تركيبي. وقد تراءت أهمية النظر إلى النص كوحدة اتصالية في البحث عن الدلالة أو" المعنى" بصورة خاصة نظرا لما يتجسد من خلاله كأحداث كلامية تُنشئ المضامين وتُمررها، فبدأت مقاربة النصوص تنحو نحو فتح مجال تحليلها على كل مستوياتها. واذا كان بالإمكان تحديد النص على أنّه متتالية لغوية فإنّنا نتصوره كذلك في شكل متتالية من المعاني بوصفه كلاما تام البناء يفيد معنى قائما بذاته،ولذلك لا يحدي في التساؤل عن معناه أن نتوقف عند جزء أو بعض أجزاء النص، ومن هنا يبدأ القارئ في تكوين تصور حول طبيعة النص، ويمكن تسمية ذلك بالمحاولات الأولى لفهم النص، إذ يقتضي منه ذلك تفكيك النص إلى أجزائه البسيطة، وتركيز اهتمامه على التسلسل الزمني للأفعال داخل النص لتحديد فحواه العميق، وكذا تحديد العناصر المتباينة فيه بحسب أهميتها داخل مستواه الداخلي. وبذلك ينظر إلى الشفرات على أنها "القوى التي تصنع المعنى، ومن خلالها يمنح القارئ دوراً ووظيفة وإسهاما لينجز المعنى، إنَّ أي تساؤل حول المعنى سيثير حوله ـــــ دفعة واحدة ـــــ سلسلة من الأسئلة الخاصة بعمليات مثل: "الإنتاج" و"التداول" و"الاستهلاك" و"القراءة" و"التأويل" و"الموضوعية" و"الذاتية" و"الإمساك الحدسي أو الانطباعي بالوقائع" [1] إلى غير ذلك من الأسئلة التي تؤكد من جهة الطابع المركب لظاهرة المعنى وأنماط وجوده؛ فالمعنى لا يوجد خارج هذه العمليات، إنه ينبثق من الإنتاج والاستهلاك والتداول. وتؤكد من جهة ثانية البعد التداولي للمعنى، فالمعنى لا يوجد إلا ضمن سياق وضمن شروط خاصة للتلقي تحدد له أبعاده وامتداداته. يقول ج سارتر: "إن الفعل الإبداعي لحظة غير مكتملة في العمل الأدبي، لأن عملية الكتابة تفترض عملية القراءة كتلازم جدلي، وهذان الفعلان المرتبطان هما: المؤلف والقارئ [2]فكل نص تظل حقائقه معلقة، ومؤجلة في انتظار قارئ خبير متمرس بجماليات النصوص التخييلية من أجل فك شفراته ودلالاته، فالقراءة والكتابة فعلان متلازمان ومن ثم يتمثل دور القارئ في تنشيط الحوار الخلاق مع النص من أجل تطوير فن القراءة وفن الكتابة معا ولذلك يقول **أمبرطو إيكو ( U. Eco )** مثلا: " أنا بحاجة إلى قارئ يكون قد مر بنفس التجارب التي مررت بها في القراءة تقريبا."[3] فهو بحاجة إلى قدرات معينة من لدن القارئ كي يتحقق النص. ولا تنحصر هذه القدرات فقط في الجانب اللغوي الصرف، بل تتعداه إلى ما هو أشمل من ذلك بسبب الطبيعة المعقدة للنص المقروء. ولذلك "يتميز النص عن باقي أنواع التعبير بتعقده

الكبير، ويعود ذلك أساسا إلى أن النص مليء بالمسكوت عنه، فالنص يقوم على جانبين: جانب المنطوق وهو الذي يشغل سطحه وظاهره، وجانب المسكوب وهو الذي يستدعي القدرة " التناصية " للقارئ كي يتم تحيينه أثناء القراءة. يحاول القارئ أن يتنبأ لمشروع معنى ممكن للنص، وإذا كان النص عند **امبرتو إيكو**(Umberto Eco)حاملا لقصدية مؤلفه ومتضمنًا له، فهو "يتوقع قارئه النموذجي القادر على الاشتراك في الترهين النصّي بالشكل الذي خمنه الكاتب وفكّر فيه [4]لذا، فان "النص يستلزم من قبل القارئ مجموعة من الحركات (العمليات) التعاونية النشيطة"[5] بهذا المعنى، تكون القراءة مكونا داخليا للنص، فكما أن المنطوق يستند إلى المسكوت عنه الذي يمنحه معناه، كذلك يستند النص إلى القراءة كي يكتمل معناه ويتحقق. وتبدو الفراغات والبياضات المتخللة للنص شيئا لازما لسببين اثنين: اقتصادي وجمالي. فالنص لا يمكنه أن يقول كل شيء دون أن يتحول إلى خطاب تعليمي وتلقيني، كما أن شروط تحققه الجمالي يدعوه إلى أن يحتفظ للقارئ بحيز ينشط فيه تأويليا[6]

إنّ اعتماد التأويل على الفعل التخييلي يتعلق بجدلية تعدد المعاني، المسألة التي تبقيها مفتوحة على التدليل أو (السيميوزيس **(عند شارلز ساندرز بيرس** Charles Sanders Peirce)على أساس أنّ الإفهام تختلف للتوصل إلى المعرفة الحقة، ولتخطي عقبات اختلاف القراءات ينبغي أن تحقق في أقصى تحديد لها المعنى الأوّلي الذي لا لبسفيه، فيتضح المعنى الذي يمكن أن نرى فيه حاملا للمعنى الممكن للنص، ونزع إمكانيات الارتياب في تقصّيه " فلكي يأتي قرّاء عديدون بدلالات متعددة لنفس الواقعة،يجب أن يتفقوا في البداية على أنّ هذه الواقعة تحيل في بعدها الظاهري المباشر على معنى أوّلي لا يطعن فيه أحد [7]إن التلاقح بين النص والقارئ لايمكنه بأي حال من الأحوال أن يزهر ويثمر؛إذا لم يفسح القارئ العنان لخياله وانزياحاته بين أزقة المعنى وتعالقات النص؛ لذلك فان عملية التأويل التي يقوم بها القارئ تدخل النص في غمرة المعنى تملأه بالقصدية و الماورائية فيتحول القارئ إلى ذات مبدعة والنص إلى إبداع ثان.« دون أن يفلت الفعل التأويلي. ..مراقبة المؤلف[8]»وأما القصدية أو الآنية فيعني أن المعنى يتكون من خلال الفهم الذاتي والشعور القصدي الآني بإزائه، لذلك حصر **هوسرل(Edmund Husserl،)** مهمة الفينومينولوجيا*بدراسة الشعور الخالص وأفكاره القصدية باعتباره مبدأ كل معرفة[9] وهو ما استثمرته نظرية الاستقبال والتلقي أو جمالية التلقي* في عنايتها بالفهم الذي عدته عملية وظيفية لأنّها عملية دالة تسهم إسهاما فاعلا في بناء المعنى الأدبي[10]تأسيسا على ما سبق، يظهر أن النص يحتاج كثيرا إلى مساعدة القارئ، والى تدخله النشيط حتى يتمكن من ملء فراغاته ومناطق لاتحد يده، والخروج من صمته، وتحقيق جماليته ما دام النص آلية بطيئة (اقتصادية) تعيش على فائض قيمة المعنى الذي يدخله فيه المتلقي[11]فلا لا يكتفي النص بانتظار هذا التدخل فحسب، وإنما يعمل،من جهته، على خلقه وإيجاده يترتب عن هذا التحرك النشيط لبناء صورة محددة للقارئ، إن كتابة النص، وقراءته، وتأويله،

تتم ضمن إطار استراتيجي يتوقع فيه الكاتب قارئه، ويترقب فيه ردود أفعاله الممكنة ليستبقها،أو يؤخرها، معتقدا أن القدرات التي تمنح كلماته معناها هي نفس القدرات التي سيلجأ إليها القارئ أثناء عمله التأويلي، وهذا القارئ الذي يسعى المؤلف إلى بنائه (القارئ النموذجي) ليس ذاتا فردية، وإنما هو إستراتيجية نصية، أي سلسلة من العمليات النصية المرتقبة التي يتعين القيام بها كي"يتم تحيين تام للمعنى الكامل للنص." ويتضمن المعنى في منهج القارئ المخبر الخاصية الزمنية للحدث، حيث تتطور تجربة القارئ للنص عبر تطور ردود فعله باتجاه بنية النص اللغوية، فمع تقدم القراءة يتفاعل كل جزء من النص مع ما يسبقه فيؤيد تماسك التجربة أو يقوض ذلك التماسك موجهًا التجربة باتجاه جديد.نتيجة للخاصية الزمنية في القراءة لا يمكن إغفال أي جزء من بنية النص اللغوية، فالمعنى يأتي من تجاور الأجزاء بحيث تسهم كل مفردة في تجربة القراءة لا بمعناها المعجمي بل بما يثيره من رد فعل ناتج عن موقعها في النص وعلاقتها بما قبلها وما بعدها (فالمعنى قد ينتج من اللامعنى) فعمق القراءة لا يتم إلا بالفهم العميق لأفق التأويل الذي هو حوار مع النص المبدع الذي يجعل منه موضوع تشريح وتفكيك وعليه فالتأويل عملية مشروطة تحكمها اللغة وثقافة المؤول وآفاقها تستوعب إجراءات تكوين المعنى جميع أشكال التفاعل بين القارئ والنص في أي قراءة حقيقية، حيث تحدث تلك الفعاليات أثناء تكوين المعنى بواسطة إجراءات المعنى التي تمثل المرحلة الأولى من التجربة، و بذلك تترتب مراحل القراءة التالية على تلك المرحلة و توظف إجراءاتها بطرق متنوعة لتحقيق أنواع متعددة من التفاعل مع النص. فقد تكون الدلالات التي يحدثها النص ببنيته التركيبية لغوية، أو تكون ذات طابع نفسي، أو رمزي، أو فلسفي. كما أن وجهة الناقد الجمالية تحكم نوع المنهج الذي سيختاره ويختبر من خلاله ردود فعله تجاه بنية النص.فمؤول النص، إذن، يجب أن يقطع مسافة إلى معنى النص أو ما تحته لأن وراء النص الظاهر نصاً خفيًا لا يُتوصَّلُ إليه إلا بتغلغل الفكر.وعلى المؤول أن يملك حيل التفاوض مع النص الظاهر ليحسن الكشف عن ذلك النص المختبئ وراءه أو خلفه أو تحته، بعد أن ينصت لصوته الخفي مثلما أنصت لبنيته الظاهرة ن جهة أخرى يستوعب منهج القارئ القيمة الجمالية للنص، فلا يمكن إغفال القيمة الجمالية إذا كانت جزءاً من اهتمامات القارئ التي تدخل في خطوات القراءة الفعلية، ويتمثل ذلك في بحث القارئ عن وقع جمالي للنص وفق إجراءات خاصة حيث لا تتعارض تلك الإجراءات مهما كانت مع منهج القارئ المخبر مادامت تدخل في نطاق التجربة كأثر للنص، وذلك باعتبار أن كل ما يحدث في أي قراءة فعلية هو جزء من تجربة القارئ للمعنى.

إن فعل القراءة يجب أن يأخذ بعين الاعتبار مجموعة هذه العناصر حتى إن استحال على قارئ واحد أن يستوعبها كلها. وعلى هذا الأساس، فإن أي فعل للقراءة هو تفاعل مركب بين أهلية القارئ (معرفة الكون الذي يتحرك داخله القارئ) وبين الأهلية التي يستدعيها النص لكي يقرأ قراءة اقتصادية. وفعل القراءة

في مثل هذه النصوص هو فعل انتشاء ومعاناة جمالية لا يقال ولا يفهم، وإنما يتحرك في الداخل بين السطور، فهو متعة تصوفية أي دخول في حضرة النص وحضيرته وإنما ينبغي استطلاع ما يعتمل في نفس القارئ عندما يقرأ. وهو إذ يقرأ فإنما يقرأ على هدى من النص، وبإرشاد الترسيمات التي يوفرها له والتي تتكفل القراءة بتنفيذها. فهو إذن قارئ مُقدر في بنية النص ذاته. "إنه البنية المحايثة للمتلقي" أو"شروط التلقي" التي يهيئها النص الأدبي لمجموع قرائه المحتملين.

إن التركيز على عنصر الذات القارئة في التعامل مع الظاهرة الأدبية مرتبط بطبيعة تحديد المعنى في النص الأدبي. فإذا كانت النزعة الموضوعية تؤكد أنه ليس هناك سوى معنى واحد ومحدد بالنسبة إلى كل عمل أدبي، وهذا المعنى يكون في غالب الأحيان مرتبطا بقصد المؤلف، فإن **إيزر** من خلال تركيزه على الذات القارئة يؤكد أن النص يقدم معاني مختلفة، وأن الذي يحدد إمكانات تأويل تلك المعاني هو القارئ اعتمادا على مجموعة من القرائن النصية التي تمنح القارئ حرية أكبر في تحديد المعنى أو المعاني التي يتضمنها النص، أو خلق معاني أخرى بطرق مختلفة. ومن هنا فإن ما يهم **إيزر(iser)** في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنية النص ومتلقيه. فإذا كانت البنيات متضمنة في النص "فإنها لا تستوفي وظيفتها إلا إذا كان لها تأثير على القارئ"[12]إن التركيز على عنصر الذات القارئة في التعامل مع الظاهرة الأدبية مرتبط بطبيعة تحديد المعنى في النص الأدبي. فإذا كانت النزعة الموضوعية تؤكد أنه ليس هناك سوى معنى واحد ومحدد بالنسبة إلى كل عمل أدبي، وهذا المعنى يكون في غالب الأحيان مرتبطا بقصد المؤلف فقراءة العمل الأدبي بحسب **إيزر(iser)** دائما لا يجب أن تهتم بالنص الفعلي فحسب، بل ينبغي أن تهتم، وفي نفس المستوى، بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص، "فالنص ذاته لا يقدم إلا مظاهر خطاطية يمكن من خلالها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص، بينما يحدث الإنتاج الفعلي من خلال فعل التحقق، ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي، الأول هو نص المؤلف، والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ".[13]

وهكذا تتغذى نظرية التأويل بالظاهراتية* القائلة بأن الإدراك يتم عن طريق تفاعل الذات بالموضوع ( القراءة مثلا ) وتجاوز معادلة الفصل بين الذات والموضوع التي رسختها المناهج العلموية. وعليه فالتأويل محكوم بعملية استطلاع الحقيقة السرية أو المعنى المختفي وراء الإشارات والتعبيرات المختلفة. وحينما نتحدث عن تأويل النص الأدبي فإننا نفترض أن معناه من الاتساع والعمق أو التعدد بحيث لا تكفي في إدراكه القراءة الواحدة أو حتى القراءات المتعددة إذ من الممكن أن يتخذ القارئ أو القراء دور اللاعب في مقابلة لا تنتهي بحيث يظلون منغمسين في الشبكة الداخلية للنص ومعلقين فهمه أو تحديد معناه ومرجعيته إلى ما لانهاية، لكن إحلال القدرة التأويلية للقارئ في القدرة التعبيرية للنص هو الذي يمكّن من تحقيقه ضمن العالم الذي تحدده اللغة ويربطه بالعالم المتحرك وبالناس الذين هو منهم، وذلك عن

طريق إيجاد الوصلات الخطابية والقيام بعملية المقاربة والفهم أي بالتأويل.

وعليه فإن الدور المفترض للمؤول هو إزالة الغبش وفتح طريق نحو النص بما يخدم بقية القراء أي بإنتاج فهم معين من خلال دلالات معينة يمكن تقاسمها مع الآخرين. وإذا كانت كل المناهج وكل الطرائق المتبعة في المقاربات النصية التي تميز بين العالم المتخيل والعالم المتحرك من ضمن شبكة التأويلات المختلفة، فإن المؤوّل مطالب على كل حال باحترام مقتضيات النص أي بدراسته في شكله وتشكُّله وباحترام مقتضيات الفهم أي بتتبع حركية المعنى ومحاولة الوقوف على الأرض الصلبة. ومن الممكن أن نذكر من المراحل التي يتبعها المؤول، مرحلة الوصف ومرحلة التفسير ومرحلة التأويل ومرحلة التقييم.

القراءةالتأويلية تمثل القراءة المنتِجة، القراءة التي تستثمر ما أنتجتْه القراءة الاستنطاقية، بمستوييها البنيوي والفكيكي. وعليه، يمكننا أن نصفها بالقراءة الكلِّية، القراءة التي أنتجت نصًا آخر متكئًا على النص المكتوب، أو القراءة الاستنباطية. وفي هذه الحالة تكون القراءة قد تجسَّدت، عبر مراحلها، في صيرورات أو استحالتك متتالية لتثوير المعنى المرجو من وراء عملية الكتابة، أيتأكيد جدوى الكتابة كعملية بنائية ذات بُعدٍ دلالي يسهم في المشاركة في تدوين الوعي. إذن، يمكن تعريف القراءة، من حيث هي عملية استكشافية تنويرية تأويلية ذات بعد دلالي مقصود. وبهذا التحديد يمكننا أن نذهب مع المحاولات التي ترمي إلى اعتبار القراءة عملية مكمِّلة لعملية الكتابة؛ فلا قراءة بدون نصٍّ مكتوب. وبالتالي فالقراءة هي فعل ذهني منتِج يؤدي إلى استنباط نصٍّ جديد يعتمد في تشكله على آليات القراءة كعملية ذهنية ذات بُعدٍ مستقل، ربما يستمد بعض سمات تحفزه من النصِّ المكتوب. وتأتي التأويلية لعضيد مطمح القارئ ليتمكن من ناصية النص لتقيم جسر التواصل بين القارئ والنص بصفته كائنا يطمح على التحرر وإنتاج ما لم ينتجه صاحبه، ومن هنا تضحى عملية القراءة تشكيلا جديدا لواقع متشكل من قبل [14]إذ يتجسد فعل التَّأثير والتَّأثر بما يحدثه التجاذب بين القارئ والنص وما يختزنه من ثقافات، ولا يتم ذلك إلا من خلال القراءة الواعية التي تتفاعل مع لغة النص[15] فالغاية التي تسعى إلى تحقيقها نظرية القراءة هي تحقيق حرية القارئ في التأويل، فهو طرف مهم في إثراء النص بالمخزون العكسي، يرى **بول ريكور(*Paul Ricœur*)**أنَّ الإحالة الظاهرية التي يحملها النص ضرورة لعزل النص في عالم مغلق يمنح للقارئ فهم النص لأنه بنية مستقلة عن نؤلفها ما يحيل النص إلى فضاء للرموز باعتباره نافذة نطل منها على عالم من المعنى[16] فعملية التَّلقي تتجاوز مفهوم جمالية التلقي ولذة القراءة فهي عملية تقوم على الجدل بين المتلقي والنص الذي يضمن معناه في ذاته وداخله ففهم النص أساسي وجوهري في بنيات العمل الأدبي، والفهم عملية بناء المعنى وانتاجه بفعل استيعاب القارئ للنص نتيجة تراكم التأويلات فزمن إنتاج النص ينتهي بانتهاء فعل الكتابة ومن ثمة ينتظم إلى سلسلة القراء ليباشروا

ويكتشفوا سكونية نصه فيصبح اغتراب ومدعاة للتأمل والنا ويل والتدليل و انفتاح للدلالة محور مساءلة واستنطاق،والعمل الأدبي لا يستطيع الاستمرار في التأثير إلا إذا استقبله القراء على نحو دائم ومتجدد، وهؤلاء القراء إما أنهم يكتفون باستهلاكه وتقليده، وإما أنهم يتجاوزونه وينتقدونه. وفي هذه الحالة يصبح العمل الأدبي موضوع تجربة أدبية لدى الجمهور المعاصر واللاحق، قراء ونقادا وكتابا كل حسب أفق توقعه الخاص به. وفهم النص وتأويله يتم عبر ربط النص الأدبي بسلسلة النصوص السابقة التي تنتمي إلى نفس الجنس، وفي هذا الصدد يرى ياوس أن "النص الجديد يستدعي بالنسبة للقارئ مجموعة كاملة من التوقعات والتدابير التي عودته عليها النصوص السابقة والتي يمكنها في سياق القراءة، أن تعدل أو تصحح أو تغير أو تكرر. ويندرج التعديل والتصحيح ضمن الحقل الذي يتطور فيه الجنس وهكذا تخضع العلاقة بين الطرفين لمنطق السؤال والجواب(17)

من هنا فالنص يحمل تشظيه في المعنى يحيل على فضاءات متعددة تمنح من التلقي أكثر من التقيد بالنص في شكله الجامد. فالنص الذي يحتوي على المعنى الواحد نص ميت، فقبل مباشرة القراءة والتأويل والقيام بعملية توليد المعاني وملء الفراغات التي يقترحها علينا نص ما تختلق عما يؤمنه النص من معاني جاهزة معطاة سلفا لا تحقق سوى تجسيد السلطة بمعناها الإطلاقي وهذا ما يجعل النص الجديد بعيدا عن الواقع الموضوعي، خارج مدار المعاني الجاهزة فالقارئ حسب **ناتالي ساروت**وكما أكد هذا الطرح، الروائي Alain Robbe – Grillet يجب عليه أن يتعرف في ما يقرأ على عالم ليس عالمه، ولكن يرغب في أن يكون عالمه وبذلك يصبح النص المقروء خارج السلطة كما يرسمها النص الأصلي إنه نسق الكتابة يفترض موت المؤلف كي يعيش النص.. الكتابة عالم محووس بالأثر..وهي قاعدة نميت فيها ذواتنا عبر متواليات نصية لا تخدم القطيعة الابستمولوجية مع النص المكتوب ولهذا كان **دريدا** يركز على الصوت داخل النص وتجاوز النسق اللغوي الواصف. تتحول مكونات الوجود كلها إلى نص وبطبيعة الحال مع كائن مؤول.

تعيش المعرفة النقدية الحداثية أزمة تحول فبعد استنفاذ البنيوية كل الانفتاح على "النص" لم يبق لما بعد البنيوية سوى الاحتماء بالتأويل كما جاء مع **الألماني ياوس** في جمالية التلقي حيث أصبحت القراءة هي المحددة لمفهوم النص.

فإذا كان بهذا الاعتبار النص هو اغتيال حقيقي للكاتب فالتلقي وحده الذي يجعل للخطاب الأدبي عموميته التأويلية كنص،عملية القراءة كأداء معرفي تعتبر عملية متكاملة تمر بمجموعة مستويات تبدأ بالاكتشاف أو التحري الأول وأحيانًا يسمى الانطباع الأول، ثم مرحلة الاستنطاق التي تعمل على تحليل البنى الداخلية وتفكيكها لتمهد للقراءة التأويلية في إعادة تشكيل الوحدات المعرفية إلى منتج نهائي يصف سلوك ودوافع النص المكتوب، وإلى هذا التعريف يمكننا القول أن القراءة تتبع تسلسل منطقي في

التعامل مع المنجز المكتوب، تعاملاً مثاليًا لا عشوائيًا في استدراج النص إلىمناطق أكثر إشراقًا، أو بعبارة أخرى تعمل القراءة مع النص المكتوب عملاً تنقيبيًا من حيث قصدية واضحة إذ لا نص بدون غاية أو دافع معين، وتحديد هذه القصدية في تشكيل الرؤية الأولى لعملية القراءة التي تمثل عملية تدوينية تتضمن الاكتشاف والتأويل معًا، ويجب الإشارة هنا إلى أنماط القراءة التي تمثل وحدات قرائية متكاملة إنما تميل إلى تخصيص الرؤية المنتَجة، هذا التخصيص يأتي من خلال تحديد البنى والعلاقات التي تساهم في إنتاج نمط القراءة، وعلى سبيل المثال القراءة اللغوية للنص هي منتَج معرفي لكل ما يتعلّق بإحداثيات لغة النص المكتوب، وهي تمثل التأثير الفني والسلوكي لبنيات اللغة في الشكل الخارجي للنص وتأثيرها في معالجة وحدات البناء النفسي ووحدات النسق الرمزي والإشاري، أي إظهار حالة التشكل اللغوي للنص وعلاقتها التبادلية بالوحدات البنائية الأخرى، وبنفس الإدراك يمكن وصف القراءة النفسية والقراءة السيميائية على أنها أنماط قرائية تمثل وحدات متكاملة، وكذلك القراءة التي تتناول مفهوم الزمان أو المكان، مضافًا إلى ذلك أي قراءة تعمل على تشخيص عنصر محدد من عناصر الكتابة لتمارس علية فعل القراءة كوحدة شمولية لمجموعة قراءات تساهم في تشييد مفهوم القراءة العام، أي صيرورات تتشكّل من مستويات القراءة الاستكشافية أو الاستنطاقية بمستوييها البنيوي والتفكيكي مروراً بمستوى القراءة التأويلية لتطرح رؤية شمولية لجانب من جوانب النص المكتوب،وهنا علينا التمييز بين القراءة النمطية التي تمثل صيرورة متكاملة والقراءة غير الكاملة التي تقتصر على مرحلة الاكتشاف فقط والتي تسمى أحيانًا باللاقراءة لعدم طرحها مفهوم محدد عن هوية النص المكتوب، وبهذا الفهم لعملية القراءة نكتشف أن القراءة من حيث هي أداء معرفي أو نشاط ذهني مسلّط بقصدية لتقصّي مساحات نص مكتوب، هذا التقصي محكوم بآليات وعي متوازنة وبنويات تخطيطية واضحة ترسم ملامح الغايات المرجوة من وراء القراءة، هي عملية اكتشاف واستنطاق، تحليل وتفكيك، تأويل وتدوين أو بعبارة أخرى هي دورة معرفية متكاملة تمثل مجموعة صيرورات واستحالات لتؤدي إلى إنتاج نص جديد يمكن تسميته بنص القراءة..

من هنا نفهم أنه لا مجال للقراءة الواحدة الوحيدة، كما أنه لا فائدة من البحث عن قراءة تطغيا الكشف عما أراد أن يخبئه الكاتب بين السطور. بل الهدف هو التركيز على لحظة معينة تمارس فيها عملية القراءة، وهذه اللحظة نفسها تختلف أيضا باختلاف القراءة السابقة عنها، بل قد تختلف حتما عن القراءة اللاحقة، وهذا يعني التأكيد على عملية التلقي "والمقصود بالتلقي هنا هو تلقي الأدب، أي العملية المقابلة لإبداعه أو إنشائه أو كتابته، وعندئذ قد يختلط مفهوم التلقي ومفهوم الفاعلية التي يحدثها العمل، وان كان الفرق بينهما كبيرا، حيث يرتبط التلقي بالقارئ، والفاعلية بالعمل نفسه، ومن ثمة يختلف تاريخ التلقي عن تاريخ الفاعلية"[18]

إن الشيء الأساس في قراءة عمل أدبي ما هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه وهذا يعني "أن للعمل الأدبي قطبين، قد نسميهما "القطب الفني والقطب الجمالي" الأول هو نص المؤلف والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ، وفي ضوء هذا التقاطب يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يكون مطابقا لا للنص ولا لتحققه بل لا بد أن يكون واقعا في مكان ما بينهما"[19]وفي هذا إشارة واضحة إلى تركيز **إيزر( Iser** )على عملية القراءة كفعل أساس في تحقق العمل الأدبي، ولكن ليس أي قراءة، فهي قراءة من نوع خاص تسير في اتجاهين متبادلين، من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص؛ وفي هذا إقصاء لأنواع القراءة الأخرى التي تعرف مسارا واحدا ينطلق من النص ويقف عند حدود القارئ ولا يتجاوزها.

إن القراءة هنا لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال دخول القارئ في علاقة بالمقروء. وهنا يظهر تأثر نظرية التلقي بالفلسفة الظواهرية التي كانت بمثابة رد فعل ضد الفلسفة العقلية التي تنشد الحقيقة المطلقة وفي هذا إشارة واضحة إلى تركيز الفلسفة الظواهرية على النسبية في تعاملها مع الأشياء؛ ومنها النص الأدبي الذي يأبى كل قراءة تدعي الاكتمال. "فالعمل الأدبي ليس له وجود إلا عندما يتحقق؛ وهو لا يتحقق إلا من خلال القارئ، ومن ثمة تكون عملية القراءة هي تشكيل جديد لواقع مشكل من قبل هو العمل الأدبي نفسه. وهذا الواقع المشكل في النص الأدبي لا وجود له في الواقع حيث أنه صنعة خيالية أولا وأخيرا؛ وذلك على الرغم من العلاقة الوثيقة بينه وبين الواقع. وعندئذ تنصب عملية القراءة على كيفية معالجة هذا التشكيل المحول إلى الواقع، وتتحرك على مستويات مختلفة من الواقع: واقع الحياة، وواقع النص، وواقع القارئ ثم أخيرا واقع جديد لا يتكون إلا من خلال التلاحم الشديد بين النص والقارئ "[20]

إن القراءة إذن نشاط مكثف وفعل متحرك، كما أنها ليست "مجرد صدى للنص بل هي احتمال من بين احتمالاته الكثيرة، والمختلفة، وليس القارئ في قراءته كالمرآة، لا دور له، إلا أن يعكس الصور والمفاهيم والمعاني، فالأحرى القول إن النص مرآة يتمرأى فيه قارئه على صورة من الصور، ويتعرف من خلاله، على نفسه بمعنى من المعاني"[21] إن هذا ما يجعل قارئ **إيزر( Iser)** لا يعرف التوقف، فهو قارئ مشاء على حد تعبير **E.Freund**، وموازاة مع سير القارئ، تعرف القراءة استمرارية دون أن يعني ذلك انسياب معاني النص لأن القارئ الجيد في نظر **إيزر**هو الذي يتوقف بين الفينة والأخرى بقراءته لملء الفراغات التي يتركها النص، وبذلك تكون القراءة فعلا جماعيا، وحصيلة لتأويلات ومعان ودلالات مختلفة. كما يكون النص هو ما يقرر، إلى حد كبير، استجابة القارئ، يظهر بوضوح أن نظرية التلقي من خلال فرضياتها تمزج بين أفق التوقعات التي تتحدد بتوقعات القارئ لحظة استقباله للعمل الأدبي، ونظرية التأثير التي تلغي الثنائية بين الذات والموضوع لصالح التفاعل والالتحام

بينهما.

من خلال ما سبق نستنتج أن هناك تقاطعا واضحا بين نظرية التلقي والنظريات التي اهتمت بمفهوم القراءة، كما هو الحال بالنسبة لمدرسة بوردو ومدرسة إسكاريبت المنضويتين تحت لواء سوسيولوجيا الأدب، كما تظهر وشائج القربى أيضا بين هذه النظرية ونظريات أخرى كمدرسة براغ (Prague) من خلال أعمال رائدها موكاروفسكي (Mukařovsky،) "إن منظور التلقي له مبرراته ومشروعيته، إنه إعادة القيمة للقارئ، وإعادة لأهمية السياق التاريخي والاجتماعي وكأنه نفي لتطرف الشكلانية وسرف البنيوية. إن جوهر منظور التلقي هو إعادة الصلة الحميمة والضرورية بين النص ومتلقيه"[22] وضمان قراءة فاعلة تفسح المجال للقارئ قصد التجول في مدائن النص وسراديبه

**خـاتمـــة:**

إنَّ بناء المعنى وانتاج الدلالة تصب كلها في مفهوم المشاركة واستحلاب النص الذي هو قادر على استقطاب القارئ ودفعه إلى تحقيق هويته وبناء معناه. الشيء الذي يجعل العمل الأدبي شركة بينهما ولا يبلغ مداه إلا بتعاونهما. وهكذا تعتبر مفاهيم "فعل القراءة " بعوالم النص الممكنة واستشراف آفاقه المرتقبة في مغازلة النص والتوحد في رحاب القراءة الكتابة والكتابة القراءة. وإذا كان من جامع بين هذه التوجهات فهو التقاؤها على احترام القارئ وإعادة مكانته الضرورية ودوره الفعال في فك عقال النص وإطلاق إشعاعيته الإبداعية وإن أخذ عليها المبالغة في الذاتية وتكريس ما يسمى بذرائعية التلقي التي قد تنتهي إلى نوع من الاستخفاف الوهمي الذي يتكون لدى القارئ فيحجب النص لصالح ما هو بعد النص، أو يقوم بنوع من التواطؤ الساذج الذي يقرب المسافة بأقل جهد ممكن فيجعل القراءة أقرب ما تكون إلى الاستهلاك الفج منها إلى الإنتاج المبدع.[23] وعلى كل حال فالقارئ الكفء هو الوريث الشرعي للنص، والنص هو ما يتشكل في فهمه ووعيه، ومن ثم فعملية القراءة البناءة هي عملية استكشاف وتحاور وتعارف وتحريك للإنتاجية والإبداع من خلال التفاعل التوليدي بين إمكانيات النص وقدرات القارئ ومعارفه.

## الهوامش والمراجع

* توسعت التأويلية لتنتقل من الهرمنيوطيقا(فن التأويل) إلى التأويلية(علم التأويل (حيث أوجدت لها مجالا في النظرية الأدبية والنقدية المعاصرة، مع وجود علاقات دقيقة ومتشعبة مع عديد المناهج النقدية المعاصرة؛ كتحليل الخطاب، وعلم النص، والسميوطيقا الأدبية، والتفكيكية، والتداولية. فيما يخص دراسة النصوص الأدبية وتأويلها

(1) بن كراد،المعنى بين التعددية والتأويل الأحادي، مجلة علامات، مكناس،ع13، ص18

(2)- د رشيد بنحدو، العلاقة بين القارئ و النص في التفكير الأدبي المعاصر، عالم الفكر، المجلد23 الكويت، ص، 474، سنة 994 1 1- 2ع

(3)U. Eco: Lector in Fabula.ED BERNARD GRASSET Paris 1985, P: 11.

(4) ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، *عمان*، ط1 1997. ص، 131

(5)20 U. Eco: Lector in Fabula P 73

(6)U. Eco: Lector in Fabula P74

(7) سعيد بن كراد،المعنى بين التعددية والتأويل الأحادي، مجلة علامات، مكناس،ع13، ص18

(8)امبرتوايكو: شعرية الاثر المفتوح , تر :عبد الرحمان لوعلي , مجلة نوافذ النادي الأدب يجدة – عام، 19ص،98

* تحيل اللفظة الفرنسية phénoménologie والتي تتكون من جزئين هماphénomène و logique إلى الكلمتين اليونانيتين phénoménon وlogos ،وعلى الرغم من أن المذهب الفينومينولوجي ارتبط به وسرل كمؤسس له،إلا أن أول من استخدم مصطلح "فينومينولوجيا " هويوهانهانريشلامبرت وذلك في كتابه" الأورغانون الجديد "الذي ظهرسنة1664 ،والمعنى الذي أعطاه للفينومينولوجيافي هذا الكتاب هو" علم الظاهر "أوفقه الظاهر،حيث اعتبر الفينومينولوجيا بمثابة أورغانون جديد،يميز الحق من الخطأ،وهو ماساهم في توضيح مشكلة الميتافيزيقا فيما بعد وبالتحديد علاقة الحاسة بالعقل المحض،مثلما نجده عند كانطKant : ينظر Dictionnaire de la philosophie, encyclopédie universalis, Paris, 2006, p1548

(9) سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسرل،، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1991. ص،134

* ترى نظرية التلقي أن أهم شيء في عملية الأدب هي تلك المشاركة الفعالة بين النص الذي ألفه المبدع والقارئ المتلقي، أي إن الفهم الحقيقي للأدب ينطلق من موقعة القارئ في مكانه الحقيقي، وإعادة الاعتبار له، باعتباره هو المرسل إليه والمستقبل للنص، ومستهلكه، وهو كذلك القارئ الحقيقي له:

تلذذًا ونقدًا وتفاعلاً وحوارًا" : انظر: مقالة بعنوان : منهج التلقي ونظرية القراءة والتقبل، د.جميل حمداوي، الثلاثاء 11– يوليو – 2006م.مجلة أفق الثقافية www.ofouq.com

(10) ناظم عودة، نظرية التلقي، (جامعة بغداد 1996)، ص121.

(11) امبرتوايكو: شعرية الأثر المفتوح،تر :عبد الرحمان لوعلي،مجلة نوافذ النادي الأدبي جدة،عام، 19 ص74

(12) فعل القراءة، إيزر، ص13

(13) المصدر السابق، ص12

* الظاهراتية :" أن يتجه الإنسان إلى) المعطيات (أي مايراه قائمًا في الشعور وتسمى) المعطيات ( بالظاهرة لأنها تظهر ) أمام الوعي(ينظر: نبيل رشاد سعد،دراسات انسانية،بغداد :دار الشؤون الثقافية العامة،ط1،2009، ص، 147.

(14) نبيلة إبراهيم، القارئ في النص: نظرية التأثير والاتصال، ضمن مجلة فصول، القاهرة، المجلد الخامس، العدد الأول،1984/ 101

(15) المرجع نفسه ص 101

(16) بشرى موسى، نظرية التأويل، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، ط1، 2001ـ ص130

(17) جمالية التلقي: هانس روبرت ياوس، تقديم وترجمة، د.رشيد بنحدو، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2003 ص، 24

(18) هانس روبرت ياوس، نظرية التلقي، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى، ص،7.

(19) فولفغانغ إيزر، فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب (الأدب)، ترجمة حميد الحميداني، الجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، ص،12.

(20) نبيلة إبراهيم، القارئ في النص: نظرية التأثير والاتصال، ضمن مجلة فصول، القاهرة، المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر-دجنبر، ص104،101 وتحديدا الصفحة 103

(21) علي حرب: قراءة ما لم يقرأ: نقد القراءة، ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر، ع6، س،1989ـ ص،41.

(22) رجاء عيد، ما وراء النص، مجلة علامات، السعودية، المجلد الثامن الجزء الثلاثون. شعبان 1419هـ، ديسمبر 1998، ص،179-193 انظر تحديدا، ص،193

(23)cf Stiele K : Réception et fiction , Poétique 39 , 1979 , p p 299 -320